ذكريات وخطرات

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب جامعة القاهرة

هذه ذكريات قلب وخطرات عقل ، وهى على ماهى عليه ، وبما ترمى إليه ذكريات سجلها ، وخطرات أرسلها ، صاحب هذا العقل وذلك القلب ، وقد عرفته مذ كان يافعاً فى نشأته الأولى فصاحبته بالعشرة الصادقة ، وصافيته بالمودة الخالصة ، ولازمته حتى لم نكد نفترق إلا لنجتمع ، ولم نكن نجتمع إلا ليتحدث كل منا إلى صاحبه عن ذات قلبه وعقله اللذين ليسا فى الحقيقة إلا ذات قلب الآخر وعين عقله . فأنا من هذه الناحية أعرف الناس بهذه الذكريات والخطرات بقدر ما أنا أعرفهم بحياة صاحبها وأطوارها ، وبما كانت تقوم عليه من المبادىء ، وما كانت تنزع إليه من المنازع ، وما كان يبتغيه فيها من أمانى وآمال ، وما أحاط به فيها من ظروف وأحوال .

عرفته ابنا وحيداً لأبويه ، يؤثرانه بحبهما حتى لم يكن أحب منه إليهما ، ويخصانه بكل عنايتهما حتى لم يكن أعز منه عليهما ، وينظران إليه لا على أنه ابن يعقدان عليه وحده كل آمالهما فى الحياة فحسب ، بل على أنه كذلك ، وعلى أنه أخ وصديق له ما للأخ مع أخيه ، وما للصديق على صديقه . ومن هنا تكونت شخصيته ، وتألفت نفسيته ، وأصبح منذ صباه يأخذ الحياة مأخذ الجد فلا يلهو مع اللاهين ، ولا يعبث مع العابثين ، وإن كان يمزح مع المازحين .

وعرفته فى كل مراحل تعليمه من المدرسة الأولية إلى الجامعة منصرفا إلى التحصيل والدرس ، دائباً على تثقيف العقل وتهذيب النفس ، فكان هنا موضعا لتشجيع أساتذته وتقديرهم بقدر ما كان هناك محلا لحب والديه له ، وبرهما به . ولعل دأبه هذا ، وانصرافه ذاك ، هما اللذان جعلاه وهو طالب بالمدرسة الثانوية لا يقف عند حد الاستذكار فى الكتب المدرسية المقررة ، بل تجاوزا به إلى حدود أخرى ، وآفاق أعلى ، فكان يمعن فى قراءة ماتقع عليه يده من كتاب أو ديوان أو صحيفة أو مجلة . وما فتىء كذلك حتى أصبح ذات يوم من أيامه فى المدرسة الثانوية فإذا هو يحدث نفسه وتحدثه نفسه بأنه يستطيع أن يكون كاتباً بعد أن أصبح قارئاً ، ومن هنا أخذ يدبر ويتدبر ، ويروى ويتفكر ، وأمسى وأصبح مرة أخرى فإذا هو يسجل الخطرات ، ويرسل المقالات ، فتنشرها الصحف والمجلات .

وعرفته بعد حصوله على إجازة الدراسة الثانوية وقد تعرض لمحنة من أشد المحن على نفس شاب فى مستهل عهده بالشباب ، فإذا هو يمسى ذات مساء يوم من أيام الشتاء ، وقد اكفهر وجه السماء ، وأرخى الليل سدول الظلماء ، فأسدل معها على عينيه حجابا لم يبق له إلا مساغا لشعاع من ضياء . ولكنه وقد كان إيمانه بالله ومشيئته إيمانا قويا ، واطمئنانه إلى الله وقدرته اطمئنانا نقيا ، لم يسعه إلا أن يقف من المحنة موقف الصابرين ، ومن الله موقف الشاكرين ، وكان فى ذلك ، وفى كل ماعرض له بعد ذلك من المتفائلين الراضين ، لأنه قد رسخ فى عقله وفى قلبه أن الله خير فلا يمكن أن يريد به إلا الخير ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن مع الشدة فرجا وأن مع العسر يسرا . ومن هنا ، ومن معين ذلك الإيمان الراسخ نبعت فى قلبه الغض ينابيع السكينة والطمأنينة والبهجة التى لعل أدل ما يدل عليها نكتته التى تغلب عليه ، وابتسامته التى لا تنفك عنه .

وليس من شك فى أن هذه الذكريات والخطرات التى أحب أن أقدم أطرافا منها بين يديك ، هى أصدق مرآة لنفس صاحبها ، وأدل دليل على

ما استقامت عليه ، وما تفوهت به ، ناهيك بأنها ستظهرك على كثير من نظراته فى الحياة ، وفى أخلاق الأفراد والجماعات ، وفيما ينبغى أن تقوم عليه الحياة الناهضة فى الأمة اليقظى الواعية من دعائم قومية قوية ، ومن مبادىء علمية وعملية وروحية نقية .

وحسبك بعد الذى صورت لك من حياة صاحب هذه الذكريات والخطرات أن تعلم أنه قد بدأ يسجلها فى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٢٢ ، وذلك حين كان طالباً بالسنة الثالثة الثانوية ، وأن بعضها يرجع إلى أيام سابقة على هذا التاريخ ، كما أن بعضها الآخر يرجع إلى أيام لاحقة به ، وحسبى أن أوقفك اليوم على الفقرة التى استهل بها ذكرياته وخطراته ، والتى جعلها من حياته فى العلم والعمل بمثابة الشعار الذى يستلهمه ويستوحيه ، والمنار الذى يستضىء به ويستهديه ، فقد كتب :

« ما الحياة فى الدنيا إلا نفس يتردد فى الإنسان يوم قدومه إليها ، وإلا نفس آخر يتصعد يوم رحيله منها ، فيفنى المرء وتبقى ذكراه ، وتبلى عظامه ولا تبلى آثاره ورحم الله أمرءا قضى حياته فى علم يحصله ، أو أدب يكتسبه ، أو خير يؤتيه أو نفع لوطنه يؤديه ، فإن هذا لهو الخالد أثره ، الباقى ذكره ، الجنة مأواه ، ونعيم الخلد مثواه » (م . م . ح) .